التصوف في فكر الإمام محمد عبده

دكتور/ محمد محي الدين أحمد
قسم الفلسفة
كلية الآداب ـ جامعة المنيا

مقدمة

قل أن نجد فى فكرنا العربى الحديث والمعاصر مفكرا يتميز بالتنوع والتجديد وروح النقد ، وقد كان محمد عبده من هذه القلة التى نفضت غبار التقليد ، وتميزت كتابتها بالتنوع والتجديد ، فقد كتب فى الفقه والسياسة ، علاوة على كتابته فى الشريعة والتفسير ، كما كتب فى التربية والإصلاح وتحديث المجتمع المصرى والنهوض بالمرأة ودورها فى المجتمع .

وإذا كان السائد فى فكر محمد عبده هو دوره الإصلاحي فى مجالات الدين والاجتماع والسياسة والتربية وتحديث المجتمع المصرى ، إلا أن التصوف ومكانته فى فكر الإمام فى حاجه إلى النظر والدراسة وذلك لسببين :

الأول : أن أقلام الباحثين والدارسين لفكر الإمام خطت كثيرا حول جوانب فكره المغدق والغزير فى مختلف مناحيه ، فهناك من تناول الجوانب الإصلاحية والتربية والاجتماع كما أن هناك دراسات تناولت جوانب الفقه والتوحيد أو الكلام ، وهناك من تناول جوانب التحديث والنزعة النقدية إلى غير ذلك من الدراسات التى تناولت الفكر السياسى للإمام .

إلا أن جانب التصوف عند الإمام كان خفيا وبحاجة إلى من يكشف عنه النقاب من خلال كتاباته المتعددة وحواراته المتناثرة .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الثانى : أن محمد عبده يعد فى نظر الكثيرين امتدادا لفكر المعتزلة ، ومتأثرا بالمنهج العقلى ، بل إن فكر المعتزلة فى كتاباته يبدوا واضحاً جلياً حينا ويكاد يختفى ويلبس ثوب السلفية حينا آخر ، فكيف يكون موقف عالم مستنير يهاجم التقليد ويدعو إلى التجديد من التصوف ؟

هذا ما حاولنا الإجابة عليه من خلال صفحات هذا البحث المتواضع الذى بدأ بمقدمة ثم تمهيد يتضمن أهم الدراسات التى دارت حول فكر الإمام فى جامعات الغرب ، والتى لم تترجم بعد ، ولم تحظ بالقدر الكافى من عناية الباحثين ، ولا تزال المكتبات العربية فى حاجه إلى هذا النوع من الدراسات الجادة .

ثم عرضنا لهذا البحث من خلال خمسة محاور رئيسة :

أما المحور الأول فكان عن النشأة الصوفية للأمام ، وكيف ارتقت هذه النشأة بوجدانه ، وهذبت من نفسه ، وجملت أخلاقياته .

ثم انتقلنا إلى الحديث في المحور الثاني عن مكانة الجانب الباطنى فى فكر الإمام ، وكيف استطاع الإمام أن يجمع بين الظاهر والباطن ، ويطبق المنهج الصوفى فى النظر إلى العبادات ، وأبرزنا انتقاده للفقهاء لاهتمامهم بظاهر العبادة ورسومها الشكلية ، وذلك انطلاقا من نزعته التجديدية التى تدعو إلى فقه جديد يتلائم مع روح العصر .

ثم حاولنا في المحور الثالث الكشف عن مكانة التصوف والصوفية عند الإمام محمد عبده ، وموقفه من أصحاب التصوف السنى والتصوف الفلسفى .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ثم تحدثنا في المحور الرابع عن نظرة الإمام للأخلاق الصوفية ، ومدى أهمية هذه الأخلاق في تطهير النفس ، والارتقاء بها في سلم الكمال الإنساني .

وأخيرا ، تناولنا في المحور الخامس انتقاد الإمام لبدع الصوفية وما تفشى بين جمهور العامة فى مجتمعه ــ خاصة الصوفية منهم ــ من أمور تبتعد عن صحيح الدين مثل التواكل وانتشار الكرامات وضرورة الاعتقاد بها ، وزيارة الأضرحة والتوسل بأصحابها إلى غير ذلك من الأمور التى ساعدت على تفشى الكسل والجهل بين المسلمين .

وقد تناولنا هذا الموضوع من خلال عرض أفكار الإمام وتحليلها إلى عناصرها الأساسية التي تتكون منها ، كما تتبعنا آراء وأفكار الإمام محمد عبده من خلال الاعتماد على نصوصه ، وأحلنا بعض ما يحتاج إلى شرح وتوضيح إلى حاشية البحث حفاظاً على تماسك الموضوع وعدم تشعبه ، آملين أن تكشف هذه المحاولة عن مكانة التصوف عند الإمام محمد عبده ، وبالله التوفيق .

تمهيد:

قبل أن نبدأ الحديث عن التصوف عند الإمام محمد عبده، يجدر بنا أن نشير إلى الدراسات التي تناولت فكر الإمام محمد عبده في جامعات الغرب والتي استطعت الحصول عليها خلال فترة إقامتي بأوربا، وبعضها تم الحصول عليه من خلال معاهد الدراسات الشرقية بفرانكفورت بألمانيا[1]، والبعض الآخر من خلال جامعة السربون بباريس[2]، وهذه الدراسات تعكس مدي اهتمام الدارسين والباحثين في جامعات الغرب بالإمام محمد عبده .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وكانت هذه الدراسات على النحو التالي:

(أ) الدراسة التى قام بها محمد البهي لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة سنة 1936م بجامعة "هامبورج" بألمانيا، وهي باللغة الألمانية بعنوان "محمد عبده، أفكاره في التربية والإصلاح ودروه في إيقاظ الوعى القومى فى مصر".[3]

وتتناول الدراسة حياة محمد عبده ، والعوامل التى أثرت فى تحديد معالم شخصيته ، وأفكاره الوطنية وكيف حاول تحقيقها ، وتصور محمد عبده لعلاقة الإسلام بالإنسان والحضارة، ومحاولة الإصلاح الدينى من خلال إصلاح الأزهر وتحديث المناهج الدينية ، وتشتمل هذه الدراسة على ستة أبواب وتقع فى 118 صفحة .

(ب) وهناك دراسة أخرى قام بها "مالكولن كير"(Malcoln, Kerr) في جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية سنة 1966م وهي بعنوان "الإصلاح الديني، النظريات السياسية والقانونية لإمام محمد عبده ورشيد رضا"[4] وهي تتناول الأصالة والتجديد عند الإمام محمد عبده وموقفه من المنهج السلفي ومدي تأثيره في الشيخ رشيد رضا.

(ج) وفي عام 1977م، قام الباحث أحمد البساطى في جامعة باريس الخامسة ــ والتي يطلق عليها جامعة ديكارت ــ بدراسة تحت عنوان "تطور العلوم الدينية في الأزهر منذ زمن الشيخ محمد عبده"[5]

(د) ولم يكد العقد التاسع من القرن العشرين يبلغ عامه الثاني حتى عالجت الباحثة منى السعيد موضوع "العلمنة لدي الإمام محمد عبده" وذلك من خلال

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الدراسة التي تقدمت بها إلى جامعة باريس الأولى وهي بعنوان "الإسلام وإشكالية العلمنة لدي مفكر مصري في القرن التاسع عشر "محمد عبده"[6] وهي مسجلة برقم 14-6829.

(هـ) وفي عام 1944م، أتم الباحث محمد حداد رسالته بجامعة السربون ـ المعروفة بجامعة باريس الثالثة ـ وكانت حول محاولة نقد الفكر اللاهوتي "محمد عبده مثالا" [7] وهي مسجلة برقم 18038-14 وتقع في جزئين.

(و) وهناك دراسة أخرى تناولت جوانب الإصلاح عند الإمام محمد عبده وهي الدراسة التى قام بها "تشارلز آدمز"[8] وكانت حول حركة الإصلاح الحديثة في مصر وهي بعنوان "الإسلام وحركة التجديد في مصر"[9]، وقد طبعت بالولايات المتحدة مرتين، وكانت الطبعة الأولى عام 1933م، أما الثانية كانت في 1968م.

والدراسة تضم شخصيات ساهمت في حركة التجديد أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا.

(ز) ومن الدراسات التي تناولت الفكر المصري بوجه عام، وتطرق الحديث فيها عن محمد عبده كرائد ومفكر مصري رسالة أنور مغيث حول الماركسية بمصر[10]، قد تقدم بها الباحث إلى جامعة باريس العاشرة في سنة 1992م وهي مسجلة برقم 92/Pa/00/29 .

(ح) وهناك أيضا رسالة تقدم بها مجدي عبد الحافظ إلى نفس الجامعة السابقة في عام1991م، وكانت بعنوان "فكرة التطور في الفكر الإسلامي،

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

واتجاهات نظرية التطور في الفكر العربي المعاصر "حالة مصر".[11] وتحدث فيها عن دور محمد عبده فى إصلاح وتطوير المجتمع المصرى .

دراسات حول "رسالة التوحيد"

وكان لرسالة التوحيد للشيخ محمد عبده النصيب الأوفر من اهتمام الباحثين، فقد ترجمت إلى العديد من اللغات وقد قام الشيخ مصطفي عبد الرازق بترجمتها إلى الفرنسية سنة 1925م ومهد للترجمة بمقدمة تشتمل على حياته وأفكاره[12] وهسي بالمكتبة الشرقية بباريس ،ثم قام اسحق موسى بترجمتها إلى الإنجليزية وقام بنشر الترجمة في لندن عام 1965م[13].

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا تلميذ الأستاذ محمد عبده عن رسالة التوحيد أنها قرأت درساً في الأزهر على أكثر من ألف أزهري من الطلاب والعلماء، وأعيد طبعها عدة مرات، وانتشرت في جميع أقطار الأرض ودقق النظر فيها كثيراً من العلماء الذين كانوا يحسدون مؤلفها ويتمنون له عثره ينتقدونها[14].

ويعد الشيخ محمد رشيد رضا من أكثر تلاميذ الإمام التصاقا به وتأثراً، كما يعد جمال الدين الأفغاني من أكثر أستاذة الإمام الذين اثروا فيه وتركوا بصماتهم على توجهاته وأفكاره إلى الحد الذي جعل بعض الكتب والنصوص مختلطة النسبة بين جمال الدين وتلميذه محمد عبده، ومنها على سبيل المثال "التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية" وهو كتاب كبير قام الأفغاني بتدريسه في مصر، وموضوعه الإلهيات والعقيدة. كذلك "رسالة الواردات في سر التجليات" وهى رسالة

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

صغيرة وتقع في سبعة عشرة صفحة ، وقد قام كل من د. محمد عمارة ، ود. على شلش بتحقيق نسبة هذه الكتب .[15]

ولا شك في أن محمد عبده أفاد كثيرا من أستاذه جمال الدين ، كما أفاد من اطلاعه على علوم الغرب وثقافته، وأيضا بمناقشاته ومراسلاته للمستشرقين الفرنسيين.

وهذا هو ما أشار إليه "تشارلز آدمز" وهو أحد المهتمين بحركة التجديد في مصر حين يقول "يمكن أن نلمس تأثير بعثة محمد عبده إلى الغرب في منهجه النقدي، وأحاطته بمناهج المؤرخين المسلمين، وأيضا نلمس هذا التأثير في معالجته لقضية الخلافة، ودعوته الجادة إلى التجديد، واستخدام الطرق والمناهج الحديثة والتي مهدت لظهور حركة التجديد التى مثلها طه حسين فيما بعد[16].

بل أن الشيخ على عبد الرازق قد توارث النزعة الروحية والعقلية من الإمام محمد عبده، وهو وإن اختلف عن أخيه مصطفي في المنهج والرؤية إلا أنهما يمثلان معاً اتجاهاً حراً وبناءاً لحركة التجديد التى بدأها محمد عبده.

كما أن ما نجده عند أعضاء مدرسة التجديد التى بدأها محمد عبده من أهداف ومثل وبعد نظر إنما يدل على مدي الدين الذي يدينون به لمحمد عبده ومشروعه الإصلاحي الذي بدأ به وأتمه[17].

وبعد، فمن الواضح أن هذه الدراسات في مجملها لا تبرز بوضوح مكانة التصوف عند الإمام محمد عبده، ولعل هو الذي حدا بالدكتور أبو الوفا التفتازاني إلى القول بأن صلة الأستاذ الإمام بالتصوف في حاجة إلى المزيد من الدراسة

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والاستقصاء سواء في حياته أو في آراءه الإصلاحية[18]، وهو ما سوف نحاول كشف النقاب عنه في هذه الدراسة المتواضعة ، وسنبدأ أولا بالحديث عن النشأة الصوفية للأمام .

أولا : النشأة الصوفية للإمام محمد عبده

ينتمي الإمام محمد عبده إلى أبي الحسن الشاذلي وطريقته، يقول الإمام في حديث دار بينه وبين الشيخ محمد الدلاسي ـ وهو من المتصوفة ـ في يوليو عام 1904م "أنني احترم أبا الحسن الشاذلي، وأنا من أهل طريقته، لم أسلك غيرها"[19].

ولكن كيف كانت نشأة محمد عبده، وما هي العوامل التى ساهمت في أن يقترب من التصوف والصوفية؟ هذا ما سوف نعرفه من خلال الحديث عن الأثر الصوفي في نشأته.

ومن المعروف أن الذي وجه نظر محمد عبده إلى التصوف رجل متصوف يدعي الشيخ درويش كان في خؤولة أبيه وهو الذي حد من جماح محمد عبده ونصحه بطلب العلم في طنطا، وأرشده إلى طريق التصوف، ثم ارتحل الإمام بعد ذلك إلى الأزهر فحضر دروس كبار العلماء في مختلف العلوم الأزهرية مع الاشتغال بالتصوف فألف رسالة الواردات[20].

ويذكر الأستاذ العقاد أن الشيخ درويش أعطى لمحمد عبده بعضاً من كلام الصوفية في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها في الباطل من مظاهر الحياة الدنيا وشيئا من المعارف الصوفية [21]

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ويبدو أن تصوف الشيخ درويش كان تصوفاً سنياً قائماً على الكتاب والسنة بعيداً عن البدع السائدة وقتذاك.

يتضح هذا من أجوبة الشيخ درويش على أسئلة محمد عبده حينما سأله عن طريقتهم قال الإسلام، وعن وردهم قال القرآن، ويقول الإمام عن شيخه هذا "أنه أخرجه من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة ومن قيود التقليد إلى أخلاق التوحيد، ويري الإمام أن هذا الشيخ كان مفتاح سعادته، إذ بين له ما غمض ، وكشف له ما خفي[22].

ويرجع فضل الشيخ درويش على محمد عبده إلى توجيهه الوجهة الصحيحة في صباه، فلولاه لأصبح محمد عبده في عداد المغمورين، وكان محمد عبده الذي لا يعرفه أحد.

فكيف كان هذا الشيخ الذي لعب دوراً كبيراً في تشكيل شخصية محمد عبده وأخذ بيده في خطواته الأولى؟

يقول أحمد أمين " أن الشيخ درويش شخصية لطيفة تظهر في بعض البيئات المصرية على قلتها، وهي شخصية متصوفة تمتاز بنور البصيرة أكثر مما تمتاز بسعة العلم[23]، ويرسم أحمد أمين ملامح شخصية هذا الشيخ بأنه رجل زاهد يعمل في الدنيا كما يعمل أهلها ولكن في رفق وتسامح وميل إلى الخير وهي شخصية من أولئك الذين يرون الدنيا جسراً إلى الآخرة فلا بد أن يعبر الجسر في أمان، وبعد أن كانت الدنيا عند محمد عبده مال وجاه وزينه وتفاخر أصبحت بفضل توجيه الشيخ عمل صالح وحب وإخاء وإيثار[24].

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

كما يصف عثمان أمين شخصية الشيخ درويش بأنه رجل صوفي طيب القلب، زكي الفؤاد، استطاع في خمسة عشر يوماً أن يروض جماح الفتي ــ يقصد محمد عبده ــ وأن يوجهه إلى المعاني القدسية واللذائذ الروحية[25]، فارتقت بوجدانه كما جملت نفسه ولهذا يقول مصطفي عبد الرازق في تقديمه لرسالة "العروة الوثقي" أن الشيخ محمد عبده "كان صوفي الأخلاق، وقد هذبت من صوفيته تربية السيد جمال الدين الأفغاني"[26].

وقد تحدث محمد عبده عن ذلك الأثر الطيب الذي تلقاه في ريعان شبابه فيقول "هذا الشيخ هو مفتاح سعادتي، إن كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا، وهو الذي ردّ لي ما كان غاب عني من غريزتي، وكشف لي ما كان خفيا مما أودع في فطرتي"[27].

بيد أن الإمام ظل على علاقة بالشيخ درويش حتى رحيل هذا الرجل، وكان يستشيره في كل صعوبات الحياة، ولقد كانت نصائحه تصطبغ بالرشاد وروح عالية في التسامح والتي انطبعت في شخصية الإمام، وفي أثناء إقامة الشيخ محمد عبده بطنطا تفرغ أكثر لمجالسة الصوفية وتنمية الجوانب الروحية وذهب إلى القاهرة وهو متشرب بروح التصوف.

وفي بداياته بالأزهر كان محمد عبده يتقابل مره كل عام مع الشيخ درويش وذلك خلال الإجازة من نصف شعبان إلى نصف شوال.

وقد علمه الشيخ درويش شيئين هامين:-

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أولهما: أن ينطلق من عزلته إلى الناس يعظهم ويذكرهم وأن يتحول بعلمه من النظر إلى العمل وهكذا فعل.

ثانيهما: بين له خطأ رؤية الأزهر تجاه العلوم بعدما كانت هناك علوم تعلم وعلوم لا تعلم، فبين للإمام أن كل العلوم يجب أن تعلم كالمنطق والفلسفة والرياضيات، وكلها واجبه ومهمة لحياة البشر[28].

ولعل هذا هو ما دفع محمد عبده فيما بعد كي ينهل من مختلف العلوم والمعارف وأن يطلع على كتب الفلسفة بعد أن كان الأزهر يعتبرها من الكفريات.

وقد أشار اسحق موسى في صدر ترجمته لرسالة التوحيد إلى الإنجليزية إلى هذا التأثير الصوفي الذي استمده الإمام من الشيخ درويش، فقد ترك هذا التأثير علامة واضحة في تقواه وورعه الفطري وسموه الروحي، كذلك أشار موسى إلى تأثير أستاذه الأفغاني من ناحية والتأثير الأوروبي وانفتاحه على الثقافة الفرنسية من ناحية أخرى، هذه الثقافة التي أنقذته من التقديس المعهود لعمائم الأزهر، وحررته من أن يكون أسيراً للشروح والتفسيرات التقليدية للنصوص[29].

ولعل تحول الإمام من نزعة الزهد إلى الاهتمام بالحياة الاجتماعية والسياسية يرجع إلى دور أستاذه جمال الدين الأفغاني وحثه إياه على دراسة العلوم المختلفة والإقبال على الحياة العامة، فراح ينشئ المقالات ويتحرر من التقليد، وينهل من علوم العرب والعجم داعيا إلى التجديد[30].

وهذا التأثير الذي ساهم في تشكيل نشأة مُحمد عبده هو الذي أشار إليه العقاد حينما رأي أن الإمام تأثر في بدايته بطريقين:-

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الأول: طريق الحفظ والتلقين التى يأخذها من خلال دراسته في المسجد الاحمدى بطنطا.

الثاني: طريق الذهن والوجدان التى يتلقاها من قريبه الصوفي الحكيم الشيخ درويش[31].

هذا الطريق ــ كما يري الأستاذ العقاد ــ هو الذي استطاع أن يجذب الفتي نحو العلم ويصرفه عن اللهو لأنه خاطب فيه الذهن المتفتح والوجدان المتطلع إلى النور بعيداً عن تعقيدات دروس المسجد ومشايخه، ولعل ما تلقاه من شيخه درويش نخبه من حكم الصوفية وجوامع النوادر والأمثال ، ويستنتج العقاد أن تصوف الشيخ درويش الذي جذب إليه الإمام في مطلع الشباب شئ آخر غير التواكل والكسل والزهد في أعمال المعيشة، لأن أستاذه الشيخ درويش كان فلاحاً يعمل في الزراعة، وكان يحثه على تعلم الحساب والهندسة والمنطق وعلوم الحياة، وينهاه عن العزلة واجتناب الناس، ويأخذ من بعضهم الهداية ويصاحب العقلاء[32].

ثانيا : العناية بالباطن وانتقاده الفقهاء

يبرز الجانب الصوفي في شخصية الإمام محمد عبده في اهتمامه بباطن الإنسان باعتباره جوهر الدين، فهو يجمع بين الظاهر والباطن، وعنايته بالباطن قدر عنايته بالظاهر، وهو يطبق منهج الصوفية في فلسفته تجاه العبادات، إذ يؤمن بأن الشريعة قول وعمل، عقيدة وسلوك، وأن الظاهر يكمل الباطن، وليس هناك عمل بلا روح.

يتضح هذا من الحديث الذي دار بين الإمام وتلميذه الشيخ رشيد رضا في منزل الأول بالعباسية سنة 1903م، إذ يري الإمام أن المسلمين ضيعوا الدين

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

واشتغلوا بالألفاظ، وتركوا كل ما فيه من المحاسن والفضائل ولم يبق عندهم شئ.[33]

وتكمن العناية بالباطن عند الإمام في جانبين:

الأول اهتمامه بالجانب الباطني للعبادات وهو نظرة صوفية،

الثاني في نقده للفقهاء لاهتمامهم بظاهر العبادات .

أ ــ النظرة الصوفية للعبادات

نظر الأمام إلى العبادات نظرة صوفية ، وتتضح عناية الأمام بالجانب الباطني للعبادات في رفضه الاهتمام بظاهر العبادات على حساب الباطن ، وهو ما يتسق تماما مع أمر به الشارع الذى جمع بين الظاهر والباطن ، وسوف نسوق بعضاً من هذه العبادات التي انتقد فيها الأمام بعض المسلمين الذين قصروا النظر على شكل العبادات دون التركيز على مضامينها الأخلاقية ومعزاها الروحى . ومنها على سبيل المثال:

<u>الصلاة</u> : ينتقد الإمام حال المسلمين في الصلاة التي يصلونها فالله لا ينظر إليها ولا يقبل منها ركعة واحدة.[34]

ويصف الإمام هذه الصلاة بأنها مجرد حركات وألفاظ لا يعقلون معناها ولا يخطر ببال أحدهم أنه يخاطب الله تعالي ويناجيه بكلامه، ويسبح بحمده ويعترف بربوبيته، وأنه يطلب الهداية والمعونة منه دون غيره، والإمام ينتقد الفقهاء ــ كما فعل الكثير من الصوفية ــ في اهتمامهم بظاهر العبادة، ففي نظرتهم للصلاة يتعجب الإمام من فقهاء المذاهب الأربعة المعروفين الذين رأوا أن الصلاة بلا حضور ولا

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

خشوع يحصل بها أداء الفريضة. هذه الرؤية للصلاة ينتقدها الإمام لأنه يعني بالنية، ومن المعروف أن تصحيح النية هو أول اهتمام السالكين، فالنية ـ كما يري الإمام ـ عند أداء الصلاة ضرورة لصحة الصلاة، لأن النية هي قصد المرء وغرضه من فعله، فإذا كانت الصلاة لوجه الله وابتغاء مرضاته صحت، وإذا كانت النية خلاف ذلك فهو الرياء.[35]

ويخرج الإمام على جمود الفقهاء الذين حرفوا نصوص الكتاب والسنة إلى الحد الذي جعله يقرر أن صلاة "المستر براون"[36] خير عنده من صلاة بعض المسلمين.

ومن الواضح أن الإمام ينظر إلى الصلاة نظرة صوفية، فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاة وتضرع وتسبيح وتعظيم، وهي فوق ذلك كله تصدر عن شعور بالسلطان الإلهي الذي يغمر القوة البشرية، ويستغرق الحول والقوة فتخشع له القلوب، ويستحوذ على النفس، وليس في العبادات شيئا يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات، أو رمي الجمرات، على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العلي الخبير.[37]

فالإمام يعترف بأن هناك من العبادات ما لا يعرف الحكمة منه عقلاً، فإذا كان العقل يحتل مكانة كبرى عند الإمام ، إلا أنه يري أن هذا العقل قاصر عن فهم الفائدة لبعض العبادات كعدد الركعات، وطقوس الحج، وضروب الزهد، فكل هذه الأمور لا تعرف إلا من طريق الشرع المنزل عن طريق الرسل.[38]

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وهذا يتطلب التسليم والإزعان للأمر الإلهي، والإيمان العميق ، والثقة بعلم الله وحكمته أقوي وأكمل من كل ثقة بغيره من طبيب أو صيدلي وسواهما، ويري الإمام أن المريض إذا كان عادة لا يسأل عن تركيب الدواء ومقاديره ثقة منه في الطبيب والصيدلي ، وإلا قد يموت إذا رفض أن يتناوله قبل أن يعرف كل تركيباته وجزئياته، فكذلك الأمر في التسليم والإزعان لأوامر خالقه، ولا شك أن للعبادات من صلاة وصوم وحج وغيرها فائدة في تطهير النفس من الشرور، وبما تنهي عنه من الفحشاء والمنكر.

الصوم : كذلك نظر الإمام إلى الصوم؛ فأنه ليس حرماناً من الطعام والشراب فقط، وإنما هو حرمان يعظم به أمر الله في النفس، وتعرف به مقادير النعم عند فقدها، ومكانة الإحسان الإلهي في التفضل بها.(39)

الزكاة : وهو ما فرضه الإسلام للفقراء في أموال الأغنياء حقاً معلوماً يفيض به الغني على الفقير سداً لحاجة المعدم، وتفريجاً لكربة الغارم، وتحريراً لرقاب المستعبدين، وتسييراً للأبناء السبيل، ولم يحث على شئ حقه على الأنفاق من الأموال في سبيل الخير ، وكثيراً ما جعل عنوان الإيمان، ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم.

وللزكاة جانب باطني في تطهير نفوس أهل الفاقة من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء، وساق الرحمة في قلوب الأغنياء على البائسين والضعفاء فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس أجمعين.(40)

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الحج: وأما أعمال الحج فتذكير للإنسان بأوليات حاجاته، وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده ولو مرة في العمر يرتفع فيها الامتياز بين الغني والفقير، والصعلوك والأمير، ويظهر الجميع في معرض واحد مكشوفي الرؤوس، متجردين عن المخيط، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين، كل ذلك مع استيفائهم في الطواف والسعي والمواقف ولمس الحجر ذكرى إبراهيم.[41] ويتضح من هذا أن فهم الإمام للعبادات يجمع بين رسوم الفقه وروح التصوف.

ب ــ نقده للفقهاء

ومما يأخذه الإمام على الفقهاء أنهم لم ينفضوا غبار التقليد، وأقاموا الحجب التي تحول بينهم وبين النظر في آيات القرآن ومتون الحديث.[42]

بل يري الإمام في حديث دار بينه وبين الشيخ رشيد رضا أن الفقهاء لبعدهم عن التصوف الذي هو الدين "جهلوا سياسة وقتهم وحاله، ولجهلهم بالسياسة لم يعرفوا كيف يمكن تنفيذ الأحكام الشرعية".[43]

ويأخذ الإمام على الفقهاء طبيعة الجمود، واضطراب الفهم، والإحجام عن إبداء الرأي فيما يجهلون، وقلب الحقائق، وترديد النصوص دون إعمال العقل، ولعل مرجع ذلك هو تزمتهم في فهم النصوص الدينية ، وتشبثهم بحرفيتها وظاهرها دون الالتفات إلى روحها.

أما نقده للفقهاء في مسألة الوضوء فهو قولهم "أن ماء الزهر والورد لا يصح الوضوء به".[44]

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بينما يري الإمام أن هذا الماء ليس فيه زيادة عن الماء إلا شيء من الطيب الذي هو من مقاصد الشرعية، كما يرفض الإمام قول بعض الفقهاء بنجاسة المـاء الذي داخله مادة الكحول، إذ يري الإمام أن مادة الكحول طاهرة بل تستخدم كمطهر ولا تفسد الوضوء، ويري الإمام أن الاستدلال الذي استدل به الفقهاء على نجاسـته استدلال ضعيف.(45)

ومن الواضح أن الإمام لا يرفض الفقه في مجمله، ولكنه يـرفض بعـض آراء الفقهاء الجامدة، وهو يري أن المسلمين بحاجة إلى فقه جديد يتلائم مع ظروف العصر وتحدياته، وهذا يتفق مع نزعته للتجديدية، فما يستجد من وقـائع تختلـف باختلاف الأمكنة والأزمنة لا تفي الكتب الفقهية القديمة بالإجابة عليها، فهناك الكثير من المسائل والإشكاليات التي جدت في حياة المسلمين.

ولعل هجوم الإمام على الفقهاء مرجعه إلى أن الفقهاء فسروا الدين تفسيرا غريبا فحصروا الإسلام في العبادات والمعاملات والشعائر الخارجية، وظنـوا أن ذلك ضماناً لرضي الله وسعادة الدارين.

من أجل هذا نهض الإمام محمد عبده معارضاً ميول الفقهاء وإسرافهم فـي تقدير الظاهر وإهمالهم لعناية بالسر والباطن، وكما يري د. "عثمان أمين" أن فكر الإمام في هذا الصدد كان قريباً من فكر قدماء الصوفية بما كان لديه مـن ازدراء للنزعة الصورية في الدين والتي تحصر الحياة الأخلاقية والدينيـة فـي مراعـاة الرسوم الخارجية للدين وإهمال الجوانب الباطنية التي هى جوهر العقيدة.(46)

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

كذلك لم يسلم من هذا الهجوم علماء الأزهر الذين عاب عليهم الإمام الاهتمام بالحواشي والثقافة المدرسية التي قد تنمي الذهن دون أن تقوي الشخصية، وتدفع إلى البذل دون أن تدفع إلى العمل، علاوة على عدم اكتراثهم بما يجد من أمور تتعلق بالدين والدنيا.[47]

ولعل اختلاف محمد عبده مع الفقهاء هو اختلاف منهجي، فبينما يبحث الفقيه في النصوص لتأييد فتواه وهو في ذلك يعتمد على النص في المقام الأول، نجد الإمام يعتمد على العقل ويؤول النصوص الدينية تأويلاً معبراً عن الاجتهاد، وسعة الاطلاع والرغبة في اكتشاف الحقيقة، علاوة على أنه يقوم بتوظيف الأفكار الدينية بحيث لا تكون أفكاراً مجردة معزولة عن مجتمعنا بفهم متفتح للدين تقف ضد ما هو جامد وتحارب التقليد الأعمى للسابقين.[48]

وعلى هذا فقد نظر الإمام إلى المسائل الفقهية بشكل أكثر عمقاً بما لها من أبعاد روحية ودلالة أخلاقية، فنبذ أسلوب الفقهاء العتيق واهتمامهم بالنظرة الشكلية للأمور الدينية لأن هذا يتعارض مع دعوته إلى استقلالية الفكر ونزعته إلى التطوير والتحديث والتي تتطلبها المصلحة العامة وحاجة الناس إلى التجديد وهو ما يتفق مع الروح الحقيقية للاسلام.[49]

ويري الإمام أن هجوم الفقهاء على الصوفية أدى إلى ضعف هذه الطبقة وسبب ذلك ـ كما يري ـ هو ما ألم بهم من تحامل الفقهاء عليهم، وأخذ الأمراء بقول الفقهاء فيهم، فتعرض بعض الصوفية للتنكيل والتعذيب والقتل، كما كفر الفقهاء البعض الآخر، فأدى إلى اختفاء الكثير منهم ولجوء أصحاب الوجد إلى الرمز والإشارة.[50]

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ونستطيع القول أن هذا الموقف تجاه الفقهاء ينطلق من نزعة الإمام التجديدية التي تدعو العقل إلى أن يتحرر من التقليد وينطلق إلى الاجتهاد القائم على الفهم والاستنتاج والاستنباط، ذلك الاجتهاد الذي يحاول صياغة فقه جديد يتلاءم مع تطور الحياة الإسلامية، وما يجد فيها من مشكلات وتحديات مع التأكيد على عدم فرض مذهب فقهي بعينه دون الحجر على مختلف العقول الواعية في حق الاجتهاد والاختلاف ودحضاً لأحادية الفكر والرأي،والبعد عن التعصب والتطرف والتمسك بروح الإسلام السمحة.[51]

ثالثا : مكانة التصوف والصوفية عند الإمام

نظر الإمام إلى التصوف نظرة موضوعية[52]، فالأمام لا يرفض التصوف كلية، وفي نفس الوقت لا ينكر ما علق به من شوائب وخزعبلات، ولعل النزعة العقلية عند الإمام هى التى جعلته ينظر إلى التصوف بشفافية الروح ومنطق العقل في آن واحد، مستنداً في ذلك إلى ما تقره الشريعة الغرة، فهو يعطي التصوف حقه، ويشيد بدوره في تربية النفوس وتصحيح الباطن فيقول "كل ما أنا فيه من نعمة في ديني-أحمد الله تعالي ــ فسببها التصوف، فغرض الصوفية تربية المريدين بالعلم والعمل من أجل فعل الصالح من العمل، وهذا هو جوهر الدين"[53]

ولكن ما موقف الإمام من الصوفية؟

يقف الإمام موقفاً منصفاً من أصحاب التصوف السني، فحين يتحدث عن أبى حامد الغزالي يضعه موضعه ولا يغمطه حقه، ويشيد بدوره في العالم الإسلامي ويستنكر ما حدث من اعتداء على مؤلفاته ومصنفاته، فقد حملت كتب الغزالي إلى غرناطة بعدما انتفع بها المسلمون أزماناً ثم هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ألسنة البربر بتفسيقه وتضليله، فجمعت تلك الكتب خاصة نسخ "إحياء علوم الدين" ووضعت في الشارع العام في المدينة وأحرقت.[54]

وفي حوار دار بينه وبين الشيخ محمد الدلاسي ــ وهو من المتصوفة ــ حول التصوف والولاية، وكان في يوليو سنة 1904م، يقول الإمام للدلاسي "خذ على الرسول وأصحابه والتابعون، والأئمة الأربعة وقدماء الصوفية كالخراز والجنيد رئيس الطائفة، وسائر أهل القرنين الأول والثاني"[55]

أما حين يتحدث الإمام عن أصحاب مذاهب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود فنظر إلى هذه الأحوال التي تلم بالصوفية على أنها حالات غير طبيعية ، بمعني أنها خارجة عن الطبيعة والنواميس الطبيعية العادية نتيجة الذوق الخاص أو العلم الوجداني.[56]

وما صدر عن الصوفية من كلام يخالف ظاهر الشرع فما كان ينبغي أن يظهر أو يكتب، ولا ينكر الإمام ما للصوفية من أذواق خاصة وعلم وجداني، ولكنه يريد أن يجعله خاصا بصاحبه، ولا يصح أن ينقله لغيره ولا أن يكتبه ويدونه علماً.

فما اختص به الصوفية من مكاشفات ومواهب ظاهرة وباطنة أمر لا ينكره الإمام كما يقول "فالعبادة على قسمين قسم مكسوب يمكن بذله، وقسم ليس في استطاعه البشر بذله، كالإيمان والمعارف الوجدانية، وهو ما يسميه الصوفية بالأسرار، فلا يصح أن تطلب ولا أن توهب"[57]

أما ما نجده عند الصوفية من رمزية في التعبير، فإن الإمام يري مرد ذلك إلى تكفير الفقهاء للصوفية ــ كما سبق أن أشرنا ــ ومناصرة الحكام للفقهاء مما

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

حدا بالبعض إلى الكتمان ووضع رموز لعقائدهم واصطلاحاتهم، وبالغوا في التستر كما هو الشأن في الجمعيات السرية، وما يتفقون عليه في الباطن يسعون إلى تحقيقه في الظاهر بطرائق شتي.(58)

ولا يعني هذا أن الإمام يقبل ما جاء عن بعض الصوفية من عبارات ورموز واصطلاحات لا يعرفها إلا أهلها، فمن أخذ بظاهرها ضل ، لأنها مخالفة للشريعة، ويري الإمام أن هذا الظاهر غير مراد ولا يحل النظر في هذه الكتب إلا لأهلها.

فالإمام يري أن الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله، فتضطر السياسة للدخول في الأمر لحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفكر، لا لأنه تفكّر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه ، بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه، مع أن غيره في غني عما يراه هو حقا له.(59)

والذي نستطيع أن نستخلصه حول رأي الإمام في بعض الصوفية الذين تفوهوا بعبارات تخرج في ظاهرها عن صحيح الشرع ، هو أن هذه الأحوال تخص أصحابها ولا يمكن أن تكون معياراً لغيرهم، ولا يجوز أن نكتب أو تدون، وان ما جاء عن الصوفية أو متأخريهم وتلامذتهم من أمور تخالف الشرع لا يقاس عليها أقوال وأفعال وسلوك عامة المسلمين، فالمعيار عند الإمام في كل ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال ومناقب وحركات هو كتاب الله وسنة نبيه وما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ويرجح الإمام أن البعض قد دس على الصوفية وحشي كتبهم بالفاسد من القول وما يخالف الشرع وقد ضرب الإمام مثلا بذلك بالإمام الشعراني الذي يري أن كتبه مليئة بالدسائس، كذلك ينكر ما نسبه بعض متأخري الصوفية لأبي الحسن الشاذلي من أمور لا أثر لها في الشرع المنزل قرآناً وسنة.[60]

ولكن ما هو موقف الإمام من ضرورة وجود شيخ للمريد يسترشد به ويطلب منه العون؟

يري الإمام أن فرائض الدين ومعرفة حلاله وحرامه أمر واضح ، والفضائل والرذائل معروفة للنفس بالفطرة ومما جاءت فيه الكتب والرسل ولا تحتاج لشيخ أو مرشد والله هو المرشد والمعين وهو يهدي سواء السبيل، وينصح الإمام السالكين بالاعتماد على الله ، لأن المرشد الحق قليل في هذا الزمن.

ولا يفوت الإمام أن بعض الناس قد يلتبس عليهم شيء في أمور دينهم ودنياهم ويحتاجون إلى من يعينهم ويهديهم سواء السبيل، هنا يشترط الإمام شرطين:

الأول: أن يكون المرشد أفضل في العلم والعمل وحسن الخلق.

الثاني: ألا يقبل على إرشاده أجراً ولا يمد يده لأحد، وعلى حد تعبير الإمام "ألا يجعل دينه دكانه"[61]، أي لا يتاجر بالدين.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

رابعا : أخلاق الصوفية.

يثني الإمام على أخلاق الصوفية، ويشيد بعلمهم وآدابهم بقوله "أنه لم يوجد في أمة من الأمم من يضاهي الصوفية في علم الأخلاق وتربية النفوس.[62]

ويذهب الإمام إلى ما هو أبعد من ذلك حين يري أن الطريق إلى إصلاح الأزهر هو تربية طلابه وتنشئتهم على طريق أهل التصوف بما يتطلبه من مجاهدة وتربية وتهذيب وذلك إذا أردنا إصلاحه وأعماره.[63]

وفي موضع آخر ينصح الإمام بتدريس الأخلاق والآداب الدينية لطبقة المعلمين والمرشدين في خطوة نحو إصلاح الأزهر وذلك بتفصيل تام وإحاطة كاملة على نحو ما سلك الإمام الغزالي في "الإحياء" مع تطبيق تلك القواعد الأدبية الشرعية على الأصول المشهورة.[64]

ويدعو الإمام إلى تطهير النفس في مسيرتها نحو بلوغ الكمال الأخلاقي وذلك بتخليتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل.

فللإنسان كمال مفروض عليه أن يسعي إلى تحقيقه وهو في استيفاء ما يمكنه من الفضائل، وهو أيضا عرضه لنقص يجب عليه الترفع عنه.

والفضائل عند الإمام سجايا للنفس تألف وتوفق بين أهلها كالسخاء والعفة والحياة ونحوها، فالسخيان لا يتشاحان، ولا يتنازعان في التعامل ، وسخية كل منهما للبذل في الحق والمنع إذا اقتضاه الحق، فكل يعرف حده فيقف عنده.[65]

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وبهذا يري الإمام أن الناس الذين يتفقون فى السجايا تميل نفوسهم إلى الاتحاد والالتئام في الأعمال والمقاصد، فالفضائل إذا اجتمعت أو غلبت في بعض الأشخاص مالت نفوسهم إلى الاتحاد والالتئام، وكل يميل إلى من يشاكله، فتتوحد الإرادة والهدف.

وكما يعرض الإمام لبعض الفضائل التي يجب على المسلم التحلي بها كالتعقل والتروي والتفكر والهمة والصبر والحلم والشجاعة والإيثار إلى غير ذلك من الفضائل التي عرضها في "العروة الوثقى" ، فقد عرض أيضاً للرذائل التي ينصح المسلم بالتخلي عنها نحو القحة، والبذاءة، والسفه والطيش والتهور والجبن والدناءة والحقد والحسد والكبرياء والكذب والنفاق إلى غير ذلك من الرذائل.[66]

والإنسان مجبول بالطبع على النفور من هذه الآفات، وهي تفرق بين الناس ولا تجمع بينهم، فلا يمكن لشخصين شرهين حاقدين حاسدين أن يجتمعا في مقصد أو غاية، فهي أخلاق التنابذ.

هذه الرذائل إذا تفشت في أمة نقضت بناءها ونثرت أعضاءها، فتسطو عليهم الأمم وتتكالب، وهذه الصفات الدنيئة إذا تفشت في قوم صار بأسهم بينهم شديداً، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتي تراهم أعزة بعضهم على بعض، أذلة للأجنبي، وكأن الإمام محمد عبده يشير في مرارة إلى ما لاقاه من هجوم عليه خاصة من علماء عصره حين يتحدث عما تفشي بين الناس من جحود وإنكار بقوله "يرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحاً، وكل جليل منهم حقيراً، إذا نطق الأجنبي بما يدور على ألسنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم، ينكرون أن يكون من بينهم عالم أو خبير، ويرتابون في نصح الناصح ويسخرون بالوعظ، ويبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لإعلاء شأنهم وجمع كلمتهم"[67]

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وقبول الإمام لما يتحلى به الصوفية من أخلاق مؤسس على الدين الذي يجب غرسه في النشيء، فهي صفحات بيضاء مفطورة على أصول الدين وذلك يكون بمعرفة الأوامر والنواهي وتثبيتها في العقول والدعوة إلى العمل بها.[68]

ويتضح من ذلك أن النزعة العقلية لا تفارق الإمام حتى في مجال الأخلاق فهو يري أن التمييز بين الخير والشر أمر طبيعي يدركه الناس جميعا من غير حاجة إلى شرع أو عرف، فالتمييز بين الخير والشر في نظر محمد عبده هو شأن من شؤون العقل دون معونة من العقيدة، وأن في وسع العقل أن يتوصل إلى معرفة الخالق وقوانين الوجود وخلود النفس، وهذه النظرة العقلية للإمام دفعت البعض ومن بينهم د. "عثمان أمين" إلى القول بأن الإمام "كان يرمي إلى إحياء المذهب العقلي الذي قال به المعتزلة".[69]

لكن هل يكفي العقل وحده لهداية البشر دون حاجة إلى الرسل؟

يري الإمام أن التمييز بين ما هو نافع وبين ما هو ضار يسير على أهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل، ولما كان الناس لا حد لرغباتهم، وليس جميعهم اختصوا بنور البصيرة فكانوا محتاجين إلى هداية أوثق من هداية العقل وهي الهداية النبوية.[70]

ولعل عناية الإمام بتطهير النفس والسمو بها كان رد فعل لتيار المادية الذي كان سبباً في ذهاب الأخلاق وتقهقر الدين وتضاؤل الحق وعبادة القوة، وهو الذي طمس نور الروحانية، والإنسانية اليوم بحاجة إلى ما يجلي عنها ذلك الصدأ حتى تعود إلى فطرتها السوية التي يتوازن فيها جانب الروح مع جانب المادة.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وهذا هو هدف التصوف الذي هو في جوهره عناية بالباطن ومحاولة الترقي الأخلاقي من أجل معرفة الله معرفة لا يشوبها شك، والسمو بالروح باعتبار أن لذة الروح أفضل من لذات الجسد، ولا شك أن إدراك هذه اللذة الروحانية، كان موضع اهتمام الإمام محمد عبده فهو يفرق بين لذة ما يفني ومنفعة ما يبقي، ويري أن أعمال الإنسان منها ما يحضر لذته وتسوء عاقبته، وهو ما يجب اجتنابه ومنها ما قد يشق احتماله ولكن تسر مغبته، وهو ما يجب الأخذ به.[71]

خامسا : انتقاد الإمام لبدع الصوفية

عارض الإمام محمد عبده الكثير من البدع التي انتشرت بين صوفية عصره ولا يزال بعضها قائماً إلى يومنا هذا، فهو لا يغض الطرف عما ألم بمتأخري الصوفية من بدع وابتعاد عن صحيح الدين، بل ويحمل هؤلاء الصوفية مسئولية تفشي الجهل والكسل بين المسلمين.[72]

وسوف نناقش بعض المثالب التي يأخذها الإمام على هؤلاء ومنها : الفهم الخاطئ للتوكل ، وتفشي التواكل ، وانتشار الكرامات بين العامة ، وزيارة الأضرحة والتوسل بأصحابها.

(أ) الفهم الخاطئ للتوكل وتفشي التواكل بين جمهور المتصوفة.

يتعرض الإمام إلى مسألة في غاية الأهمية تفشت بين المسلمين خاصة الصوفية منهم ، وهي الفهم الخاطئ لمفهوم التوكل، فراح يعرض لمفهوم التوكل مبيناً حقيقته، ومفرقاً بينه وبين التواكل[73]، ومستدلاً بما كان عليه النبي ﷺ

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والسلف الصالح في سلوكهم ومعاشهم، ويري الإمام أن الفهم الخاطئ للتوكل هو الذي أحال بعض المسلمين إلى الكسل والقعود عن العمل وهو الذي جعل أكثر الصوفية يستسلمون إلى الحوادث تصرفهم حيث تهب ريحها، وترتب على ذلك أن شاعت بين المسلمين آفات التردد وفتور الهمة وضعف العزيمة وفساد العمل، هذا المفهوم الخاطئ للتوكل ــ كما يري ــ يبتدأ من البيت وينتهي إلى الأمة، ويمر في كل طبقة ويجول في دوائر الحكومة.(74)

إن هذا الفهم الخاطئ لمعنى التوكل هو الذي يجعل المسلم يري أن الحالة الحاضرة هي ما قدر الله له، ولا حيلة له فيها، فإذا خطر بذهنه داعي العمل سرعان ما يكسل ويقعد وينزع إلى البطالة والكسل ويظن أن هذه الوساوس من العقيدة، والدين برئ من أمثال هذه الاعتقادات.(75)

ويثني الإمام محمد عبده على أحد أعلام التصوف وهو الإمام أبو حامد الغزالي في فهمه للتوكل، ويري أن الأمة في حاجة إلى أمثاله ممن يذكرون العامة بسنن السلف ويطهرون الشريعة مما طرأ عليها من لواحق البدع، وينشرون بينهم أن التواكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منا في العمل لا في البطالة والكسل، وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا، ونبذ ما أوجب علينا بعبة التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين الحائدين عن الصراط المستقيم.(76)

هذا الفهم لحقيقة التوكل يدفع الإمام إلى نبذ عقائد الجبرية وبعض العامة الذين ينكرون حرية الإنسان واختياره في أفعاله، ويرون أنه مجبر فيما يصدر عنه جبراً محضاً، فهذا الفهم الخاطئ ربما يدعو الإنسان إلى ترك الفرائض واقتراف المعاصي.(77)

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بيد أن فهم الإمام لمعنى التوكل كان نتيجة طبيعية لفطرته السليمة التي تؤمن بأن هناك شي وراء القشور وسر وراء الكلمات، وكما يقول الأستاذ العقاد "إن هذا الفطرة هي التي رفضت أباطيل اللصقاء بالصوفية، فهي لا تنخدع بما يدعون إليه من تواكل وكسل، وإذا كانت أسرة الشيخ الإمام تعتقد في الأولياء وأبناء الطريق إلى الله، لكن هذا الاعتقاد لم يمنع أحدهم من إهمال حقله أو إلقاء فأسه والتخلي عن كفاحه للعيش".[78]

إن التوكل كما يفهمه الإمام هو الثقة بالله والخضوع التام لإرادته مع استعمال الجهد والإرادة لبلوغ المقاصد، وليس هو التوكل الذي يعني الجمود والقعود عن السعي والعمل.[79]

(ب) تفشي الكرمات وموقف الإمام منها

إذا كان الإمام يرفض تفشي الكرمات بين العامة وضرورة الاعتقاد بها ، إلا أنه لا يرفض الكرامات التي تقع عن بعض الأولياء والصالحين.

ويدرج الإمام الكرامات تحت علم التصوف، لأنها تدخل في همم النفس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير، وفي مكان الأعمال الصالحة، والارتقاء بالنفوس في مقامات الكمال من العناية الإلهية وهو ما يختص به علم التصوف.

ويري الإمام بجواز وقوع الكرامات وخوارق العادات عن غير الرسل والأنبياء والقول بأن ذلك يوقع الشبه في المعجزات غير صحيح، لان المعجزة مقرونة بالتحدي ودعوة الرسالة والتبليغ عن الله تعالي، ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عن سواها.[80]

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وصدور خوارق العادات من غير الأنبياء أمر لا يختلف عليه العقلاء وليس موضع نزاع بينهم، إلا أن الإمام يري أن لكل مسلم الحق في أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولي كان، ولا يكون بإنكاره هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين، ولا مائلا عن السنة الصحيحة، ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم.[81]

وهنا يوجه الإمام الأنظار إلى حقيقة مهمة للرد على تفشي الهزيان بالكرامات وخوارق العادات بين العامة من الناس، والذين انتشروا في عصر الإمام، حتى اصبح ذلك ضرباً من ضروب الصناعات التي يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر بها همم الأصفياء.[82]

والأمر الخارق للعادة هو الأمر الذي يصدر مخالفاً لشرائع الكون ونواميسه.[83]

والمعجزة مقرونة بالتحدي عند دعوة النبي، وهي برهان من الله لتأييد النبوة لكي يميز الناس بين صادق الدعوة ومدعيها.

ويحاول الإمام تفسير ما يحدث عن خوارق العادات بأنه من الممكن أن يكون لخوارق العادات نواميس خاصة وضعها الله وهو الذي وضع النواميس المعروف لنا ولكن لا نعرفها، بل يمكن أن نري أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده.[84]

وعلى هذا فالإمام لا ينكر المعجزة أو الكرامة فهي ليست من نوع المستحيل عقلاً، وإنما هي لا تخضع لقانون السببية، وهو ما لم يقم الدليل على استحالته، وإن كان لها ناموس خاص بخوارق العادات.[85]

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ويري الإمام أن الذين أجازوا وقوع الكرامات استدلوا عليها مما جاء في القرآن الكريم حول قصة مريم عليها السلام، وحضور الرزق عندها، وقصة أصحاب الكهف، وقصة نقل عرش بلقيس.[86]

وإذا كان الإمام يقبل خوارق العادات من المعجزات والكرامات، فأنه يوجه اعنف النقد إلى البدع المذمومة والمنتشرة بين المسلمين في عصره التي تدخل تحت زعم الكرامات مثل بدعة الدوسة، وهي عبارة عن أن ينطرح الناس على الأرض ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً تلو الآخر بدعوى أنها من الكرامات.[87]

(جـ) زيارة الأضرحة والتوسل بأصحابها

وهي من الأفعال التي يقوم بها أدعياء التصوف وجهاله، ويرى الإمام أن هذا العمل يأباه الإسلام، وأنه يخالف عقيدة التوحيد، خاصة إذا كان الزائر يهدف إلى قضاء حاجة من صاحب الضريح، بل إن الفاتحة التي يقرأها الزائر إنما تنهاه عن فعل ذلك لقوله مخاطباً الله تعالي إياك نعبد وإياك نستعين "الفاتحة آية 4".

فلا ينبغي أن نطلب قضاء الحاجة ممن لا يملكها [88] ، وينكر الإمام أنه نهي أحد الوجهاء عند زيارة ضريح السيدة زينب أثناء الاحتفال بمولدها.

ويتضح من ذلك أن الإمام ينكر زيارة الأضرحة إذا كانت بهدف طلب العون والحاجة من صاحب الضريح، ولكن إذا كانت بقصد زيارة صاحب القبر والدعاء له أو تذكر أعماله الصالحة والاقتداء به فليس في الأثر الصحيح ما ينهي عن ذلك.[89]

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ويقول الإمام في مسألة التوسل بالأنبياء والأولياء "بأن الأساس الذي بنيت عليه رسالة النبي محمد ﷺ هو التوحيد كما قال الله لنبيه "قل هو الله أحد الله الصمد" "الإخلاص آية 1،2".

والصمد هو الذي يقصد في الحاجات، ويتوجه إليه المربوبون في معونتهم على ما يطلبون وإمداده بالقوة فيما تضعف عنه قواهم، والإتيان بالخبر على هذه الصورة يفيد الحصر، كما هو معروف عند أهل اللغة، فلا صمد إلا هو.

ويستشهد الإمام برأي شيخ الصوفية ابن عربي في "فتوحاته" حول هذه الآية بأن الله تعالي لم يترك لغيره حجة عليه، بل لله الحجة البالغة، فلا يتوسل إليه بغيره، فإن التوسل إنما هو طلب القرب منه وقد أخبرنا الله أنه قريب، وخبره صدق.[90]

وعلى هذا وقد حمل الإمام حملة شعواء على تقديس الأولياء والتضرع إليهم وسؤالهم قضاء الحاجات وشيوع التواكل ، ورأى أن التوكل الصحيح هو الاعتماد على الله واتباع السنة في الطلب والأخذ بالأسباب [91]

ويقرر الإمام أن التوسل بالأنبياء والأولياء بدعة لم تكن موجودة في صدر الإسلام والقرون الثلاثة الأولى، وتشهد بذلك كتب السنة والسيرة، وهو سوء ظن بالأنبياء والأولياء من قبل العامة الذين غشيت أبصارهم ظلمات الجهل.[92]

ويتضح من هذا أن الإمام يهاجم أدعياء التصوف بما أحدثوه من انحراف عن مساره الصحيح، وما تفشي بينهم من أمور لا تتفق مع الدين الحنيف .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

تعقيب

اتضح مما تقدم عناية الإمام محمد عبده بالإنسان جسداً وروحاً ، عقلاً ووجداناً من منطلق دعوة الإمام إلى تكامل الذات الإنسانية روحاً ومادةً ، ظاهراً وباطناً، من أجل أن يرتقى بشخصية المسلم فى أطوار الكمال الإنساني .

ولعل أثر التربية الصوفية فى حياة الإمام هى التى نشأته فى صباه وهو مأخوذ بسحر التصوف ، شغوفا بحياة السر والباطن .

إن اهتمام محمد عبده بالإنسان لا يقف عند حد الظاهر بل يتعداه إلى الجوانب الروحية ، وهذا واضح من انتقاده للفقهاء لاهتمامهم بظاهر العبادات وأشكالها، مما دعاه إلى التركيز على الجانب الباطنى فى العبادة ، وبيان أهميته فى تنمية الجوانب الروحية والأخلاقية للمسلم .

وهذه النظرة التى نظر بها محمد عبده إلى العبادات هى عين النظرة التى نظر بها الصوفية إلى العبادة ، وقد ركز الإمام ــ كما تبين ــ على النية قبل السلوك ، وعني بالباطن قبل عنايته بالظاهر؛ إذ أن تهذيب الروح عند محمد عبده هى الخطوة الأولى لاستكمال الفضائل .

لقد اتضح أن محمد عبده لم يكن قط من أهل الظاهر الذين يأخذون بالحرف ويدينون بالتقليد ، ولذلك حاول صياغة فقه جديد يتلائم مع تطور الحياة الإسلامية ، وما يجد فيها من تحديات ومشكلات تفرض نفسها على الواقع الإسلامي .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وعلى الرغم من النزعة العقلية المسيطرة على فكر الإمام ، فإن ذلك لم يحل بينه وبين التصوف ، بل كان التصوف واضحاً كل الوضوح في وجدانه وأخلاقه وسلوكه ، وإذا كان محمد عبده قد نشأ في أحضان التصوف إلا أنه لم يبتعد عنه حتى أواخر حياته .

وفي نظرته إلى التصوف فرق الإمام بين التصوف السني الذي يؤسس على قواعد الشرع، وبين التصوف الفلسفي الذي ينبغي أن يضن به على غير أهله ، ولذلك وجدناه متحفظاً على هذا النوع من التصوف ومشايخه . فقد رأى الإمام أن التصوف ذوق وجداني، وللصوفية أذواقهم الخاصة ولا يجوز أن يدين بها غيرهم ، ولان الإمام يتميز بالتسامح وسعة الصدر والعقل، فهو لا يكفر ولا يفسق أي مسلم ما دام مكتفياً بالأصول الاعتقادية ويجتهد في الفروع ، فالاختلاف في الفروع لا يخرج المرء عن كونه مؤمنا .

بل إن الإمام يتفق مع الصوفية في رياضاتهم النفسية والفكرية ، وأشار إلى فضل الصوفية في إدراك الأثر الأخلاقي للدين ، والجمع بين الظاهر والباطن في النفس البشرية ، وإسهامهم في الإرتقاء بوجدان المسلم ، وإيقاظ باطنه ، موضحا أن المقصد الأول للتصوف هو تهذيب أخلاق العامة وتقويم عاداتهم وترويض نفوسهم.

وقد عمل الإمام على إيقاظ الوعي في المجتمع الإسلامي من خلال تفرقته بين التوكل والتواكل فدعا المسلم إلى العمل الجاد حتى لا يسير في تيار المتواكلين والمتقاعدين؛ إذ بين الإمام أن الإسلام لا يعرف الدعة والتواكل الذي هو حجة المحتالين المخادعين .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

كما أوضح الإمام أن الصوفى لا ينزوى عن العالم وعلية أن يوفق بين عمله وعقيدته ، ورفض تواكل بعض المنتسبين إلى التصوف وعدم مشاركتهم فى بناء مجتمعاتهم ، فالحياة الروحية لا تعنى إهمال الواجبات الاجتماعية أو الفروض الدينية .

ولقد أقر الأمام حقيقة مهمة حينما فرق بين التصوف فى طبيعته وما يدعو إليه من سمو فى النفس وتهذيبها وبين ممن ينسبون أنفسهم إلى التصوف ، وأدخلوا فيه بعض البدع ، فالعيب ليس فى التصوف، وإنما فى بعض مشايخه، وما كان عليه عوام الصوفية المتأخرين من جهل وتفريط فى الفرائض والسنن .وهذه رؤية فاحصة من مفكر دأب على مهاجمة التقليد وأقر بحق المفكر فى الإستقلال والنظر، مادام ذلك لا يتعارض مع أصول الاعتقاد ، فما اتفق مع العقيدة السمحة قبله ، وما خرج عنها رفضه ، ولذلك وجدناه يرفض ما صدر عن بعض الصوفية المتأخرين من بدع وعادات لا تتفق وصحيح الدين وتسئ إلى التصوف والصوفية مثل تفشى الكرامات بين شيوخ التصوف وتشجيع العامة على الإعتقاد بها مبينا أن إنكارها لا يخرج المسلم عن إيمانه وعقيدته ، كما رفض الإمام زيارة الأضرحة إذا كانت بغرض طلب العون والتوسل بأصحابها، مبينا أن ذلك مخالفا لعقيدة التوحيد ، وقد سعى الإمام إلى تطهير العقيدة من غلو بعض مشايخ التصوف ، وما أحدثوه فيه من أمور تخالف ما كان عليه النبى والسلف الصالح، فالدين المليئ بالخرافات لا يستقيم والعقل المستنير .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ومما يحسب للإمام أنه دعا إلى البحث فى علوم الدين والدنيا على حد سواء ، والولوج فى كل أبواب العلم ، وهذا هو السبيل إلى رفعة الأمة وتبؤ مكانتها فى الرقى والتقدم بين الأمم .

إن التصوف عند الإمام محمد عبده ذوق وفعل ، وجدان وسلوك ، وتنمية للروح، ومشاركة فى بناء المجتمع فى الوقت ذاته ، أما الذين لم يأخذوا من التصوف إلا اسمه ، ومن التعبد إلا رسمه، فهذا هو ما رفضه الإمام محمد عبده .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المراجع والإحالات

(1) أخص بالشكر الأستاذ الدكتور/ هانز ديبر Hans Diaber أستاذ الفلسفة الإسلامية، ومدير معهد الدراسات الشرقية بفرانكفورت الذي ساعدني في استعارة وتصوير المصادر والمراجع والمخطوطات التي أفادتني كثيراً في هذه الدراسة وفي غيرها من الدراسات.

كما اشكر الأستاذ الدكتور/ فؤاد سزكين مدير معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت الذي أمدني بمختلف المراجع والدوريات العلمية من خلال مكتبة المعهد الزاخرة بالكثير من الكتب النادرة والتي تعد بحق منارة للعلوم العربية والإسلامية في مدينة فرانكفورت.

(2) أتقدم بالشكر أيضا للزميل الدكتور/ خلف عبد العزيز الباحث في الأدب الفرنسي بجامعة السربون والذي ساعدني كثيراً في الحصول على بعض الدراسات الخاصة بالإمام محمد عبده أثناء زيارتي لمكتبة الجامعة بباريس، كما ساعدني في ترجمة بعض ما احتاج إليه من هذه الدراسات إلى العربية.

(3) M.El-Bahay, ***Muhammed Abduh, Eine untersuchung Seiner erziehungsmethode zum nationalbewuptsein und zur nationalen Erhebung in Agypten***, Hamburg, 1936.

(4) M.Kerr, , ***Islamic Reform, the political and legal theories of Muhammed-Abdouh and Rashid Rida***, los, Angoles, 1966.

(5). Ahmed, Al Bessaty, ***Le développement des sciences religieuses à Al. Azhar depuis le cheikh Muhammed Abduh***, Université de Paris V. 1979.

وقد أشار إلى هذه الدراسة دكتور/ محمد عمارة في تقديمه للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده وقد ذكرها بعنوان "تطور الفكر الديني في القرن العشرين وأثرها في المجتمع المصري".

أنظر مقدمة الجزء الأول للأعمال الكاملة ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، 1972 م . وإن كان هذا العنوان لا يمثل الترجمة الدقيقة لعنوان الرسالة، فالترجمة الصحيحة للعنوان الذي جاء على غلاف الدراسة التي حصلنا عليها للباحث احمد البساطي هي ما ذكرناه في المتن، وتوجد نسخة منها بجامعة السربون وهي =

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

-مسجلة برقم 168-1979.4.w وهي دراسة ضخمة تقع في ألف وسبع وأربعين صفحة وهي في مجلدين.

(6) Mona, El Saed, ***L'islam et la problématique de la sécularisation chez un penseur égyptien du siècle : Muhammed Abduh***, Paris, 1981.

(7) Mohammed, Haddad, ***Essai critique de la raison théologique : l'exemple de Muhammed Abduh***. Sorbonne, Paris III.

(8) كان يعمل أستاذا بقسم الدراسات الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

(9) Charles, Adams, ***Islam and Modernism in Egypte***, New York, 1968

(10) Anwar, Moghith, ***Le Marxisme en Egypte***, Université de Paris X,1992.

(11) Magdi, Abdel-Hafez, ***L'idée de l'évolution dans la pensée islamique et les tendances de la théories de l'évolution dans la pensée arabe contemporaine : la cas de l'Egypte***, Paris x, 1991.

(12) Muhammed Abduh, ***Rissalat Altawhid***, traduit en français par Moustapha Abdel Razik, Librairie Orientaliste, Paris, 1925.

(13) Muhammed Abduh,***The Theology of unity***, Translated from the Arabic by Ishaq-Musa-London, George Allen, ltd, 1966.

(14) انظر فتأوى الإمام محمد رشيد رضا، الجزء الثالث جمع وتحقيق د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 1970م، ص902.

(15) انظر الأعمال الكاملة ، تحقيق وتقديم د . محمد عمارة ج 1 ص 206 و 207 .

وانظر أيضا : سلسلة الأعمال المجهولة لجمال الدين الأفغاني، تحقيق وتقديم د. على شلش، رياض الريس للنشر، لندن، 1986م، ص13.

(16) Charles Adams, ***Islam and Modernism in Egypt***, New York, 1968, p.120.

(17) Ibid. p.120.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

(18) انظر الطريقة الأكبرية، بحث نشر في الكتاب التذكاري عن ابن عربي، القاهرة، 1969م، نقلا عن مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، العدد الرابع، السنة الرابعة، ص302، عدد خاص عن المرحوم الدكتور/ أبو الوفا التفتازاني

(19) محمد عبده ، الأعمال الكاملة ، تحقيق د . محمد عمارة ، ج3 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1972 م . ص 521.

(20) جمال الدين الأفغاني،محمد عبده،العروة الوثقى،المقدمة،دار الكتاب العربى ، بيروت ، 1983 م ص 31

(21) عباس العقاد ، عبقرى الإصلاح والتعليم، دار الكتاب العربى ، القاهرة، 1971 م . ص 70

(22) الأعمال الكاملة ج3 ص 72

(23) أحمد أمين ، من زعماء الإصلاح ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ص 72

(24) أحمد أمين ، من زعماء الإصلاح ، ص 72

(25) د . عثمان أمين ، رائد الفكر المصرى محمد عبده ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1965 م . ص 34

(26) جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، العروة الوثقى،(المقدمة)،دار الكتاب اللبنانى 1983م ص 35

(27) انظر رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج 1 ، ص 23

(28) أحمد أمين ، من زعماء الإصلاح ، ص 81

(29) Muhammed Abdou, ***Rissalt Altawhid,*** Trans.by Ishaq Musa, George Allen, London ,1969 .pp. 10-11.

(30) د . عثمان أمين ، رائد الفكر المصرى ، ص 34

(31) عباس العقاد، عبقرى الإصلاح والتعليم، دار الكتاب العربى، القاهرة ، 1971 م . ص 70

(32) المرجع نفسه ص 78 .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

(33) الأعمال الكاملة ج 3 ص 194 .

(34) نفس المصدر والصفحة

(35) نفس المصدر والصفحة

(36) هو رجل إنجليزي عنى بدراسة الإسلام ، ورأى ترجمة القرآن فأسلم .

(37) رسالة التوحيد ، تقديم رشيد رضا ، ص 174

(38) الأعمال الكاملة ج3 ص 397 .

وهذا الرأى يتفق مع قول الإمام القاسم الرسى ، فيذكر أن هناك ثلاث عبادات من ثلاث حجج احتج بها المعبود على العباد ، وهى العقل ، والكتاب ، والرسل ، فجاءت حجة العقل بمعرفة المعبود ، وجاءت حجة الكتاب بمعرفة التعبد ، وجاءت حجة الرسول بمعرفة العبادة ، وان كان الإمام الرسى يرى أن العقل أصل الحجتين لانهما عرفا به ولم يعرف بهما .

انظر رسائل العدل والتوحيد ، دراسة وتحقيق د . محمد عمارة ، ج 1 ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1988 م . ص 124 ، 125 .

(39) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، تقديم رشيد رضا ، ص 175 .

(40) رسالة التوحيد، تقديم رشيد رضا ص181. وانظر أيضا الأعمال الكاملة ,ج3، ص 465

(41) نفس المصدر ص 175

(42) الأعمال الكاملة ج 3 ص 314

(43) الأعمال الكاملة ، ج3 ، ص 525

وهذا الحديث مستخلص من حوار دار بين الإمام والشيخ رشيد رضا يوم الخميس الموافق 6 شعبان سنة 1315 هجريا الموافق 1898 م .

(44) فرق الفقهاء بين الماء الطهور والماء الطاهر ، والماء الطهور هو كل ماء نزل من السماء أو نبع من الأرض ، ولم يتغير أحد أوصافه الثلاثة ، وهو اللون أو الطعم أو الرائحة ،

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وهو صالح للعبادات كالوضوء والغسل ، أما إذا خالطه شئ من الأشياء التي تسلب طهورته كماء الورد أو نحوه فإنه يصبح طاهراً وليس طهوراً ، أى يصلح استخدامه فى الأمور العادية كالشرب والطبخ ، وهذا قول المالكية ، أما الحنفية فتتحفظ فى ذلك ، فقد يتغير لون الماء أو طعمه أو رائحته ومع ذلك يبقى طهوراً يصح استعماله فى العبادات ولكن ذلك مشروط بعدم الضرر أى لا يضر أى عضو من أعضاء الجسم .

انظر كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، جمع د . عبد الرحمن الجزيرى ، ج1 ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، بدون تاريخ . ص 31 ، 33 .

(45) الأعمال الكاملة ج 3 ص 196 .

وإذا كانت مذاهب الفقهاء تدور في مجال العبادات والمعاملات وهى أمور يدخل فيها الخلاف ، إلا أنه من الواجب ألا نجعل من هذه الأمور أسباب للفرقة بين المسلمين بحيث تصرفهم عن الأخذ بإصلاح المشكلات الكبرى ، وتضعفهم عن الإصلاح الحقيقى للمجتمع ، وكما يرى د . عبد الحليم محمود ،أن ضيق الأفق عند بعض المتأخرين هو الذى جعلهم يقيمون من هذه الآراء (مذاهب) منفصلة الاتباع ، ينتصر كل منهم لمذهبه .

أنظر الإسلام والعقل ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1988 م . ص 155

(46) د . عثمان أمين ، رائد الفكر المصرى ، ص 20

(47) د . عثمان أمين ، أعلام الفكر الإسلامي المعاصر ، ص 61 . وانظر أيضا رائد الفكر المصرى للمؤلف نفسه ص 100 .

(48) انظر: محمد عبده الإسلام دين العلم والمدنية ، تحقيق ودراسة د . عاطف العراقى ، دار ابن سينا للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ص 12 ، 13

(49) ***The Encyclopaedia of Islam***, C. E. Bosworth.Volume V 11. Leiden, Newyork, Ev, Brill, 1993 .p.H.G.

(50) انظر الأعمال الكاملة ، ج 3 ، ص 525 . =

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

- والصراع بين الصوفية والفقهاء معروف وقديم قدم الفريقين ، وقد أشار إلى هذا الصراع حديثا أحد المستشرقين وهو " ميشيل سد ويك " فى دراسة له عن التصوف فى كل من مصر وسوريا خاصة فى العصر المملوكى الذى أخذ التصوف فيه شكلا آخر تمثل فى العديد من الطرق الصوفية والشيوخ والأقطاب ، ويرى " سدويك " أن التصوف قد حظى فى ذلك الوقت باعتراف واسع بين جمهور المسلمين خاصة فى كل من بلاد الشام ومصر ، ومع ذلك فقد ظل الخلاف بين الصوفية والعلماء المتقيدين بالحرف " النص " مستمرا مما أدى إلى اتساع الهوة بين الصوفية والفقهاء . أنظر :

Michel Chodokiewicz, ***Le Soufisme en Egypte et en Syrie Sous les derniers Mamelouk et les premiers Ottomans***, Damas , 1995 ,p.587 .

وقد نشرت هذه الدراسة بالمعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق وتقع فى 590 صفحة .

(51) د . محمد صالح ، إعادة بناء علم التوحيد عند الأستاذ الإمام محمد عبده ، دار قباء للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1988 ، ص 9 ، 10 .

(52) تقترب هذه النظرة من موقف ابن خلدون من التصوف ، إذ يرى أن طريقة هؤلاء القوم ــ يقصد الصوفية ــ لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والإنقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد عن الخلق فى الخلوة والعبادة ، وكان ذلك عاما فى الصحابة والخلف ، كما يرى ابن خلدون ان الكلام فى المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأذواق والمواجد فى نتائجها ، ومحاسبة النفس على التقصير فى أسبابها أمر لا مدفع فيه لاحد ، وأذواقهم فيها صحيحة ، والتحقق بها عين السعادة ، وأما الكلام فى الكرامات والإخبار بالمغيبات وتصرفهم فى الكائنات فأمر صحيح غير منكر، وإن مال بعض العلماء إلى إنكاره ، أما مذاهب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود فينكر ابن خلدون على من تكلم بها وهو حاضر حاله .

انظر: المقدمة ، ج1 ، صفحات 391 ، 392 ، 395 .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

(53) هذا الحديث للأستاذ الإمام جاء فى حوار دار بينه وبين الشيخ محمد رشيد رضا فى شعبان سنة 1315 ه الموافق سنة 1898 م . انظر الأعمال الكاملة ج3 ص 526 .

(54) الأعمال الكاملة ج3 ص 341 .

وقد حدثت هذه الواقعة التى أشار اليها الإمام محمد عبده فى عهد المرابطين (1090 ــ 1147م) حينما ساد فكر الفقهاء على فكر الصوفية والفلاسفة .

(55) الأعمال الكاملة ج3 ص 521 .

(56) الأعمال الكاملة ج3 ص 526 .

(57) الأعمال الكاملة ج3 ص 520.

(58) الأعمال الكاملة ج3 ص 518 .

(59) الأعمال الكاملة ج3 ص 310 .

(60) الأعمال الكاملة ج3 ص 521 ، 522 .

(61) الأعمال الكاملة ج3 ص 522 ، 524 .

وهذا الرأى الذى انتقد فيه الإمام طوائف الصوفية فى جعلهم الشيخ أو المرشد ضرورة للمريد، سبقه إليه الحكيم الترمذى فى القرن الثالث الهجرى حين رد على شخص يسأله عن شيخ يرشده ويأخذ بيده بعدما مر بفترة من الحيرة والقلق ، فأجاب الحكيم بأن السالك لا يحتاج إلى شيخ يهديه ويعاونه ، فذلك كمن يطلب الخالق بالمخلوق ، فالمقياس الوحيد للوصول هو الاستعداد النفسى ، والرياضة الصادقة ، والمجاهدة الدائبة ، حتى يمكن التغلب على النفس وشهواتها .

أنظر للحكيم الترمزى ، جواب كتاب من الرى ، مخطوط بمعهد إحياء المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، برقم 119 تصوف ، ورقه 43 .

(62) الأعمال الكاملة ج3 ص 525 .

(63) الأعمال الكاملة ج3 ص 526 ، 532 .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

(64) الأعمال الكاملة ج3 ص 81 .

(65) العروة الوثقى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1983 م . ص 99 .

(66) العروة الوثقى ص 102.

(67) نفس المصدر ص 104 .

(68) نفس المصدر والصفحة .

(69) انظر د . عثمان أمين ، رائد الفكر المصرى ص 142 .

(70) رسالة التوحيد ص 84 .

(71) الأعمال الكاملة ج3 ، ص 411 .

(72) الأعمال الكاملة ج3 ، ص 211 .

(73) سبق أن فرق الكثير من رواد التصوف الإسلامي بين التوكل والتواكل ، ودعوا إلى السعى وطلب الرزق ، وبرأوا التصوف من التهم اللصيقة به من أنه دعوى إلى التواكل والقعود ، فقد بين الحكيم الترمزى أن السعى بدأ بأبينا آدم عليه السلام ، وأن الله طالب العباد بالسعى والكسب وطلب الرزق رحمة بهم حتى تسكن نفوسهم ولا تضطرب بما فيها من شراهة وحرص وطمع ، وتعلق الأرزاق بسعى الخلق فيه مصلحة لهم ، حتى إذا فشل المرء فى تحصيله كان ذلك معلقا بسعيه لا بسعى غيره ، وقد لا يوافق تقدير الله للرزق رغبة النفس وشهواتها ، فلو لم يعلق الرزق بالتماس الأسباب لأصبحت النفس عرضة لان تسخط على المقدور .

ويفرق الترمذى بين التوكل والإتكالية ، فالتوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلا ، أما الاتكال أن يقعد كسلا طلب للراحة ، ويزعم أن ما قدر له آتيه وهو مخطئ؛ لأنه لا يدرى أن ما قدر له بسعيه لا بسعي غيره . انظر مخطوط الفروق ومنع الترادف ، مصور عن معهد إحياء المخطوطات العربية ، ورقة 30 .

وانظر أيضا "آداب المريدين وبيان الكسب" ، تحقيق عبد الفتاح بركة ، مطبعة السعادة بدون تاريخ ، ص 142 .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ويوضح الشوكاني ذلك في " قطر الولي " بأن الله قدر الأسباب بالمسببات ، كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب ، وقدرّ حصول الزرع بالبذر ، ولو قال قائل أنا لا آكل ولا أشرب، بل انتظر القضاء ، فإن قدرّ الله لي ذلك كان ، وإن لم يقدره لم يكن ، أليس هذا القائل قد خالف ما جاء في كتب الله سبحانه ، وما جاءت به رسله ، وما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعيين وسائر علماء الأمة والاطلاع على كتاب الله وفهمه يبين ما اشتمل عليه من ترتيب حصول المسببات على حصول أسبابها=

= انظر الشوكاني "قطر الولي على حديث الولي "تحقيق وتقديم ابراهيم هلال ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، 1979 م . ص 510 .

(74) الأعمال الكاملة ج3 ، ص 329 ، وانظر أيضا عثمان أمين ، أعلام الفكر الإسلامي المعاصر ص62 وأيضا رائد الفكر المصري " محمد عبده " ص 102 .

(75) الأعمال الكاملة ج3 ، ص 329 .

(76) جمال الدين الافغاني ، محمد عبده ، العروة الوثقى ص 96 .

(77) عثمان أمين أعلام الفكر الإسلامي ، ص 63 .

(78) العقاد ، عبقرى الإصلاح والتعليم ، ص 79 .

(79) عثمان أمين ، رائد الفكر المصري " محمد عبده " ص 125 .

(80) الأعمال الكاملة ج3 ، ص 473 .

(81) رسالة التوحيد ، تقديم السيد رشيد رضا ، ص 207 .

(82) يرى الإمام ابن تيمية أن المعيار في خوارق العادات يرجع إلى الكتاب والسنة ؛أي مدى المطابقة للشرع المنزل ، فالرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء ، لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموافقته لإمره ونهيه . فإذا رأيت رجلاً يطير في الهواء أو يمشي على الماء فانظر إلى عمله ، فإذا وجدته مطابقا=

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

=للشريعة فاعلم انه ولي من أولياء الله ، وإذا وجدته مخالفا لها فاعلم انه ولي من أولياء الشيطان .

(83) الأعمال الكاملة ج3 ، ص 260 .

(84) الأعمال الكاملة ج3 ، ص 401 .

(85) يدلل الشوكاني على كرامات الأولياء بالحديث الشريف " اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله " وبما جاء على أيدى بعض رواد الزهاد والصوفية . ويستدل على جواز علم الغيب لمن أراد الله من الرسل والأنبياء بقوله تعالى " عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول " " سورة الجن آيه 26، 27 .

يقول الشوكاني "وفيه دلالة على جواز اطلاع الولي على المغيبات باطلاع الله تعالى إياه، وكلمة رسول ليست قاصرة على الرسل ، فلا يمنع من دخول بعض اتباعه معه بالتبعية .انظر قطر الولي على حديث الولي تحقيق وتقديم إبراهيم هلال . ص 520 .

كذلك يدافع ابن خلدون عن وقوع الكرامات ، ويرى إن المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالبا كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شئ منها ، فالروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الحس الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه ، فيتعرض الإدراك إلى كثير من المواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتوحات الألهية ، ويستدل ابن خلدون بوقوع الكرمات بما كان للصحابة من فضل وحظ في ذلك كما جاء في مناقب أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم من الصحابة .انظر المقدمة ج1 ص 392 .

(86) الأعمال الكاملة ج3 ، ص 21 .

أما الآية التي تدور حول رزق مريم قوله تعالى " كلما دخل عليها ذكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب " " آل عمران " آيه 37 .

قال المفسرون كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء . =

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

-أما ما جاء في أصحاب الكهف قوله تعالى " أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا " ثم يقول تعالى في نفس السورة " فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا "
" الكهف آيه 9 ، وآية 12 "

والرقيم هو الوادى الذى فيه الكهف ، وقيل الرقيم لوح من حجارة كتب فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضع على بابه .

أما الآية التى تدور حول نقل عرش بلقيس فى طرفة عين قوله تعالى " قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك " النمل آيه 40 "

قال بعض المفسرين أنه آصف بن برخيا كان صديقا يعلم اسم الله الأعظم دعى به فجاء بكرسى بلقيس فى طرفة عين . انظر تفسير الجلالين ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان 1402 م . ص 409 ، 427 . وأيضا المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، صادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ، طبعة 18 ، 1965 م ، ص 567 .

(87) رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج 2 ص 136 ، 142 .

(88) الأعمال الكاملة ج3 ، ص 528 .

(89) جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم بالآخرة " رواه احمد ومسلم وأصحاب السنن
وكان النبي يزور القبور بالدعاء لإهلها والترحم عليهم والاستغفار لهم أما التمسح بالأضرحة والتقبيل والطواف حولها فهو من البدع المنكرة ، انظر للسيد سابق ، فقه السنة ، ج 2 دار الريان للتراث ، القاهرة ، ط 2 ، 1990 م . ص 382 .

(90) انظر الفتوحات المكية ج 4 ، طبعة بولاق ، 1274 ه ، ص 226 .

(91) د . عبد الله شحاتة ، الإمام محمد عبده بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 2000 م . ص 75 .

(92) انظر فتاوى الإمام محمد رشيد رضا ، المجلد الأول ، جمع وتحقيق د . صلاح الدين المنجد ، يوسف خورى ، ص 218 ، 219 .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com